«على سبيل التقديم»

أبو بكر أحمد باقادر

يقدم هذا المجلد مختارات من حكايات حكمية من منطقة آسيان في جنوب شرق آسيا. ولقد قُدمت هذه الحكايات في إطار سعي بلدان آسيان في بناء مجتمع إقليمي يمضي إلى التكامل وتحقيق تنمية مستدامة في هذا الإقليم، ترتكز على تعاون ودعم دوله من أجل ما يحقق استقراراً سياسياً وازدهاراً اقتصادياً للإقليم برمته، من خلال العمل على توجيه جهود دول الإقليم لمواجهة مشاكل التنمية المستدامة عوضاً عن بعثرة جهودها في مواجهة بعضهم البعض، والعمل على حل أي مشاكل سياسية أو أي تنافس اقتصادي فيما بينهم بالطرق السلمية. ولكن وهي في سبيلها لتحقيق هذه الأهداف، ارتأت دول الإقليم، من خلال مبادرات عديدة أن تهتم أيضاً بأن تحقق الأهداف السياسية والاقتصادية بمشاركة واسعة من سكان الإقليم، الذين يفترض أن يشاركوا ويساهموا بشكل نشط وواعٍ في تحقيق هذه الأهداف التي من شأنها أن تسهم في تحقيق طموحات أبناء الإقليم.

وارتأى فريق من السياسيين والقادة أن تحقيق ذلك يتم عن طريق إضافة ركن ثالث هو ركن الثقافة والمعرفة والحكمة التي عرف بها الإقليم، وارتأوا أن استثمار هذه المعرفة والحكمة ـ وهي متقاربة من بعضها لأسباب تاريخية ـ قد يساعد على بناء هوية إقليمية تسمح بقدر كبير من التواصل والتفاعل بين السكان، مما سيزيد من تبادل الاحترام والمعرفة بينهم، وهذا بدوره سيزيل الكثير من العوائق والصور النمطية السيئة المتبادلة، ويعزز جسور التفاهم والقبول فيما بينهم.

ولقد تم اختيار مجموعة من «الحكايات» التي تحمل دروساً وأفكاراً من شأنها أن تساعد على تحسين التعامل مع البيئة العامة التي يعيش في كنفها الإقليم، من أجل نشرها بين النشء الذي يمثل الذخيرة السكانية للإقليم في مستقبله القريب؛ ولذلك فإن الحكايات التي تم اختيارها تدور حول موضوع التنمية المستدامة.

فالحكايات تدور حول طرح العديد من القيم الإنسانية الخالدة، وتدريب النشء على كيفية التأمل من ناحية، وترسيخ القيم وتأكيد ضرورة تفعيل هذه القيم والأفكار من أجل تنمية وحياة أفضل من شأنها المساعدة على تسريع عجلة السلام والتعاون بين دول المنطقة، بما يخدم الأهداف التي قامت منظمة آسيان من أجلها.

وفكرة الحكايات الحكمية هي أن يكون هناك سرد تخييلي يعمل على تبليغ رسالة تهدف إلى تحقيق قيمة أو فكرة فاضلة، من شأنها ترسيخ مبادئ وأهداف إنسانية، تعزز وتقوي من إمكانات نجاح ترابط وازدهار إقليم جنوب شرق آسيا. والمتأمل في الحكايات يجدها أولاً نابعة من المخزون الثقافي والإنساني المشترك بين أبناء وشعوب الإقليم. فهي إذن مما هو شائع معروف في الإقليم، وأيضاً مما يعتبره الجميع من مخزونهم القومي الذي من شأنه أن يعضد القيم التي يُرغِب في التشارك فيها وفي العمل على تجسيدها واقعاً فيما تصبو إلى تحقيقه هذه الدول عن طريق مساهمة وعمل أبناء الإقليم، لا أن تكون فكرة قيام منظمة آسيان ووحدتها طموح وإرادة القيادات فقط. كذلك فإن هذه الحكايات البسيطة هي جزء من معرفة وحكمة ذاكرة الإقليم، ومن ثم فإن التماهي معها واستبطانها ومن ثم تعليمها ونشرها بين النشء سيكون أمراً من السهل تحقيقه، ولعله سيكون أسهل في تشكيل مفهوم قيام هوية الإقليم. واختيار حكاية حكمية من كل دولة عضو في آسيان، لفتة ذكية تؤكد أن فكرة قيام منظمة آسيان تعني أن لكل دولة عضو دوراً وإمكانية للمساهمة الفعالة في إنجاح تعاون وتنمية الإقليم، ومن ثم ليست هناك دولة أو مجموعة دول تحتكر القيادة أو التوجيه، مما سيعطي الدافع لدى شعوب الإقليم للمبادرة إلى مزيد من المشاركة والتفاعل مع فكرة مجتمع إقليمي أكبر من مجرد مجتمع قومي.

وكما يتضح من المقدمات، هذه الحكايات تشترك في المكون الثقافي والديني للإقليم في تاريخه الطويل، وإنجاح الفكرة مرتبط بالقدرة على تقريب أفكارها الأساسية ـ وهي أفكار إنسانية جوهرية ـ للنشء في الإقليم، وهو ما امتاز به المجلد على المستويين الفلسفي المفاهيمي، والأساليب التربوية المبتكرة التي حولت مضامين هذه الحكايات إلى نشاطات وتمارين تربوية من شأنها أن تعلم الطلاب في المراحل التعليمية المبكرة تلك المهارات التي من شأنها أن تعودهم على التفكير النقدي والفلسفي المبدع، ومن ثم تطوير النشء من مجرد متلقٍ إلى كائن قادر على التفكير النقدي من ناحية، وإلى ذات قادرة على المساهمة وبشكل إبداعي في حياتها ومحيطها الإنساني من ناحية أخرى.

الحكايات، ربما لا تتضح أبعادها وأهدافها الأخلاقية أو التوجيهية إلَّا بعد استعراض البعد الفلسفي، وبعد القيام بالنشاطات والتمارين التربوية التي تعمل على تعويد التلاميذ على أخذ مبادرات، وعلى التعمق في التفكير في العديد من القضايا والمسائل التي من شأنها أن تجعل منهم مواطنين ومفكرين وعلماء في المستقبل.

وبطبيعة الحال يمكننا السؤال: لماذا ترجمتُ هذه الحكايات وهي ربما تنتمي لثقافات مختلفة نوعاً ما عن ثقافتنا:

أولاً: نعتقد أن هناك مشتركاً فكرياً وحكمياً إنسانياً ـ حتى مع اختلاف الدين أو الثقافة ـ.

ثانياً: رأينا أن هدفها يمكن إسقاطه على واقعنا، فإقليمنا العربي المسلم يشبه لحد ما إقليم جنوب شرق آسيا، قوته في وحدته القائمة على قبول التنوع؛ ونحن إذ نمر في هذه المرحلة التي تتميز بالاضطرابات السياسية والحروب، في أمسّ الحاجة إلى التفكير في إقامة وحدة تعترف بالتنوع كما هو الحال في منظمة دول آسيان، تقوم على الأركان الثلاثة: السياسي، والاقتصادي، والثقافي الاجتماعي؛ كسبيل إلى المزيد من التقارب والتعاون من أجل تنمية مستدامة تتطلع إلى مزيد من السلام والازدهار الاقتصادي والتجانس والتناغم الثقافي والفكري.

وثالثاً: يقدم المجلد أساليب وطرقاً إبداعية عميقة في نشر وتعليم كيفية الإفادة من كنز الحكايات الحكمية في تلك المنطقة، وإقليمنا العربي مشهور بحكاياته الحكمية التي يمكن أن نحولها إلى نشاطات وتمارين تربوية يتعلم فيها أبناؤنا ما يساعدهم على تطوير طرق تعاملهم أولاً مع بيئتهم ومجتمعاتهم، ما يساهم بصورة إيجابية في تحويل مجتمعاتنا من حالتها الراهنة إلى مستقبل زاهر مشرق.

رابعاً: إخراج هذه الحكايات الحكمية الكامنة في هيئتها الشعبية غير الفصيحة، لمجاوزة دورها كمُثل يتعلمها ويفيد منها أبناؤنا وتلاميذنا، إلى نصوص يتأملونها وتساعدهم على التفكير بصورة نقدية وبأساليب تربوية مبدعة من شأنها أن تجعلهم قادرين على التأمل النقدي والفلسفي ـ كما يتضح مما يقدمه المجلد.

إن في التراث العربي المسلم وفي الحكايات القرآنية زاداً غنياً وجميلاً يمكن عن طريق حسن إخراجه وتقديمه في قوالب تربوية حديثة، جعله مادة حيوية ومهمة لإعداد نشئنا وتمكينهم من مواجهة قضايا الحاضر العولمية، وبأساليب إبداعية مبتكرة ستتحول هذه الحكايات الحكمية ـ التي توارثناها عن أسلافنا إلى مادة تعليمية يمكنها النهوض بأجيال المستقبل من أجل المزيد من المشاركة الإيجابية؛ كما هو واضح من التمارين التربوية التي صممت في عرض الحكايات الجنوب شرق أسيوية المقدَّم لتلاميذ المراحل الابتدائية. فالمجلد مع تقديمه لحكايات من آسيا التي ساهمت ثقافتنا وموروثنا الديني في بنائها، حيث تنتمي بعض دول الإقليم إلى فضاء التراث الإسلامي، إلا أنه أيضاً يقدم لنا أمثلة عملية يمكننا أن نقتبس منها تعلم تلك الأساليب التربوية لإعادة تقديم ما لدينا من حكايات حكمية، سواء كانت حكايات حكمية قرآنية أم حكايات كليلة ودمنة وسواها الكثير الذي نجده في تراثنا. فهي إذن دعوة للتعرف على تراث الآخرين من ناحية، ودعوة للإفادة ونقل بعض الأساليب التعليمية والتربوية عند تقديمنا لحكاياتنا.

نأمل من خلال الاطلاع على هذا المجلد أن يقوم التربويون والمهتمون بالحكايات الشعبية في بلادنا بالخطوة الإضافية المهمة: أن لا نتوقف عند جمع

الحكايات أو معرفة قيمتها وأهميتها التربوية، وإنما نقوم بالخطوة التالية لتحويل هذه الحكايات إلى تمارين ونشاطات تربوية من شأنها أن تتطور من مجرد حكايات ترويحية إلى مادة تدفع أبناءنا إلى مزيد من التأمل والتفكير، بل وفوق كل ذلك تدرب النشء على قيم إنسانية جوهرية كالتعاون واحترام الطبيعة وحب الوطن وخلافه، بالإضافة إلى أن إقرار هذه الحكايات الحكمية بمناهجنا التعليمية الذي سيوفر للنشء نصوصاً تحببهم في القراءة والكتابة، سيكون أيضاً قد وفر لهم ما يكسبهم القدرة على التأمل والتفكير والانشغال منذ نعومة أظفارهم على التفكير في قضايا الأمة والسعي لأخذ مبادرات ونشاطات من شأنها تقديم إسهامات إيجابية واكتساب عادات وقيم من شأنها أن تجعلهم بشراً أفضل وأكثر إنسانية ومساهمة في تنمية مجتمعهم.